

الاستعارة بين الوظيفة الامتاعية والوظيفة الحجاجية¹

في مقالات البشير الإبراهيمي - ذكرى 08 ماي أمودجا-

المشرف د: عمارة بوجمعة

الطالب: زوير بوزاغو

جامعة الجيلالي اليابس - بلعباس-

تمهيد:

نروم في هذه الورقة البحثية الوقوف على إحدى التمهيلات الحجاجية في مقالات البشير الإبراهيمي محاولين بذلك مساءلة خطاب تراثي جزائري بمنهج حديثة , مستثمرين مفاهيم التداولية لإثبات مدى قدرة المتكلم في استثمار جوانب حجاجية ليحقق الإقناع والامتاع معاً .

فقد أضحت التداولية اليوم منهجا تكامليا تندرج تحته جميع المناهج السياقية والنسقية باعتبارها منهجا حديثاً هدفه النفعية في الخطاب بإعادة الاعتبار لصاحب النص و متلقيه ومقام التلقي⁽¹⁾ , لأن أي تحليل تداولي يستدعي بالضرورة التحديد الضمني للسياق الذي يؤول فيه الخطاب بالاستعانة بآليات التداولية .

الكلمات المفتاحية: الحجاج - التداولية- الإقناع - الإمتاع - التلقي .

Summary :

This research aims to studying some of the principles of argumentation in ELBACHIR EL IBRAHIMI's articles it also tries to focus on the study of the Algerian heritable speech through the use of modern approaches and the investment of pragmatic concepts in order to prove the lecturer's capacity to invest the argumentative aspects in order to guarantee conviction and enjoyment at the same time.

¹ تاريخ الايداع : 2017/11 / 14 تاريخ الموافقة : 2018/01/10

Pragmatism has become an integral approach under which lay all of contextuality and harmony since it is considered as a modern approach that tends to accomplish expediency in speeches by bringing back dignity to the writer and the receiver of the text and to the position of the receiver in the whole process because any kind of pragmatic analysis demands in the first place the Implicit preciseness of the context of the speech through the use of pragmatic mechanisms.

Key words: Argument - pragmatism – conviction – enjoyment – receiver

ويتبعنا لما وصلت إليه الدراسات البلاغية الحديثة (بيرلمان (Grigori (Perelman) - أوليفي روبول (olivier rubéole) - ميشال ماير (Michel Meyer) نجد أن تركيزها كان على الوظيفة الإقناعية والامتاعية للصورة؛ لتمييزها بخصائص فريدة من شأنها أن تجعل المتلقي منقاداً ببساطة نحو القضية المطروحة.

ويعتمد الحجاج على ترسانة من الأساليب اللغوية ذات البعدين البلاغي والبياني؛ كونه يشغل على الممكن والمحتمل، لأن الأساليب البلاغية قد «تعزل عن سياقها البلاغي لتؤدي وظيفة إقناعية استدلالية»⁽²⁾.

ومن هنا تظهر براعة المتكلم وكفاءته اللغوية؛ و الدور الحجاجي الذي يقع على عاتقه «حيث يصير الخطيب مالكا للأشخاص ومهيما عليهم بواسطة الكلمات»⁽³⁾.

ولأن الاستعارة مبحث من مباحث البلاغة فلا يسع الحجاج التخلي عنها؛ فهو محتاج إليها لبلوغ غاياته ومقاصده الحجاجية؛ لما تمتلكه من خصائص تخيلية تبعث في المتلقي تساؤلات من شأنها الكشف عن العلاقات الموجودة بين أطراف الاستعارة، لأن المتكلم عندما يختار الاستعارة كأداة بلاغية تاركاً وراءه بدائل أخرى متوافرة في الكلام العادي؛ إلا لأنه أخفى بهذا الأسلوب شيئاً ضمناً خفياً فاسماً المجال أمام المتلقي لتفكيك بنية هذا الخطاب المسبوك، بالارتكاز على جملة القرائن البارزة في العملية التخاطبية.

وفي هذا السياق الذي تداخلت فيه الاستعارة بين وظيفتين (إمتاعية وإقناعية) - تستند فيه هذه الأخيرة على الأولى التي هي بمثابة قاعدة تبنى عليها- تتيح عناصر شعرية جمالية، في سياق حجاجي يستطيع المتكلم به أن يؤثر في المتلقي وأن يوجهه حيث يريد ، باعتبار أن « الاستعارة تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يشغلها المتكلم بقصد توجيه خطابه، وبقصد تحقيق أهدافه الحجاجية، فالاستعارة الحجاجية هي النوع الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وسياقاتهم التواصلية والتخاطبية »⁽⁴⁾.

ومن الاستعارات الحجاجية الموظفة لتحريك همة المخاطب ودفعه إلى الاقتناع ما قاله الإبراهيمي عند وصفه لمجازر 8 ماي 1945 ، ذلك اليوم المشؤوم بالنسبة للجزائر فيقول: « يوم مظلم الجوانب بالظلم، مطرز الحواشي بالدماء المطلولة، مقشعر الأرض من بطش الأقوياء مبهج السماء بأرواح الشهداء »⁽⁵⁾.

استطاع الإبراهيمي ببراعته اللغوية أن يرسم للقارئ تصورا مشهيدا يدخله في جو تلك الأحداث بهذه المقدمة المشحونة بالاستعارات التي تبرز بشاعة ذلك اليوم، الذي عاث فيه المستدمر الفرنسي - فسادا واستباحة لدماء الجزائريين ، ويجذب إليه «مشاعر الجمهور والقراء فيدخلهم في المشاركة الوجدانية ليتقبلوا معه المعاناة من هول هذا الحدث»⁽⁶⁾.

محاججا بذلك لما سيستعرضه فيما بعد في المقال نفسه فلا يخفى على أحد أن أحداث 08 ماي 1945 جاءت بعد انتصار الحلفاء على برلين وسقوط الرايخ الألماني واستقلال باريس، وفي سبيل استقلال فرنسا جندت جيشا من جميع مستعمراتها في أفريقيا ومن ضمنهم جزائريون طامعين في وعود فرنسا بالاستقلال إن ساعدوها في الانتصار على الألمان ، إلا أنها نقضت وعدها لهم وانتقلت لهزيمتها أمام الألمان شرَّ انتقام يوم 08 ماي 1945 ، من هنا استنكر الإبراهيمي هذا الموقف وَعَبَّرَ عن هول هذا اليوم في مقدمته الأولى ؛ ممهداً لنتيجة حتمية يظهر فيها الإبراهيمي بأن وعود المستعمر الفرنسي- كاذبة قائلا: « وعاد بالتقتيل على من كانوا بالأمس يمدون حياته بحياتهم، ليربهم مبلغ الصدق في تلك الوعود، ويحدثهم بلغة الدم، ومنطق الأشلاء»⁽⁷⁾.

يُبرز الإبراهيمي بهاتين الاستعارتين (لغة الدم، منطق الأشلاء) حقيقة المستعمر ويظهر نيته الخبيثة ودناءته في التعامل مع الشعوب المستعمرة.

فليس هناك لغة للمستعمر غير لغة الدم ولا منطق غير منطق الأشلاء المتناثرة.

إذا ربطنا السياق الكلي لهذا المقال ومقدمته الأولى بهذا النص رأينا الإبراهيمي قد أحسن نسج نصه.

فالمقدمة الأولى جاءت في غاية التمييق اللفظي بالإضافة إلى ذلك الإيقاع الموسيقي الذي يحدث أثرا في المتلقي، ويفرض عليه نوعا من الخضوع والتسليم بأن يوم 8 ماي 1945 كان من أبشع الأيام في تاريخ الجزائر المستعمرة.

لأنّ المتأمل لهذه المقدمة يجدها مشحونة بمشاعر الحزن والألم والمأساة؛ فيدخل المتلقي مع المرسل في حالة شعورية واحدة لأن الإبراهيمي بخطابه للشعب الجزائري يريد أن يقيق من غفلته، فعبد الطريق لمقصوده - أنّ الاستعمار قد وعد الشعب الجزائري وعودا كاذبة -، مستعينا باستعارتين في قوله " لغة الدم، ومنطق الأشلاء "

كما اهتم الإبراهيمي بمقدمة هذا المقال اهتماما غير عادي قدمها على شكل جمل اسمية وصفية " يوم مظلم الجوانب بالظلم، مطرز الحواشي بالدماء المطلولة " لأنّ الجمل الاسمية تأتي لتؤكد المعاني وتثبتها في النفوس، « وقد بلغت العناية البلاغية هدفها الأدبي والفني في هذه المقدمة الوجيزة، وكأنها نسجت نسجا مقصودا، اعتمد فيها الكاتب على طريقة التقسيم في التراكيب وفي الجمل المعبرة، كما اعتمد على طريقة المقابلة في المعاني: فعبارة يوم مظلم الجوانب بالظلم تقابلها عبارة: مطرز الحواشي بالدماء المطلولة وعبارة: مقشعر الأرض من بطش الأقوياء يقابلها: مبهتج الساء بأرواح الشهداء «⁽⁸⁾.

تضافت مع كل هذه الاستعارات أساليب أخرى لها أثر إقناعي؛ كالسجع (الأقوياء - الشهداء) بالإضافة إلى الإيجاز الذي تعتمده الاستعارة في إخراج المعاني من الدلالة الوضعية إلى الدلالة المجازية بطريقة يحاور فيها المخاطبُ المخاطب ليصل إلى أغراضه ومقاصده التي من أجلها وُجدَ الخطابُ؛ ألا وهي تغيير أفكار المتلقي ومواقفه و سلوكاته ودفعه إلى تبني أخرى جديدة.

وللخطاب الاستعاري خصائص كثيرة تميزه عن الخطاب الحقيقي الوضعي لاحتوائه عدة وظائف متمثلة في عمليتي التأويل والفهم بين المرسل والمستقبل، لأنّ الاستعارة مبنية على التخيل وهذا الأخير يجعل المتلقي يتيه في عمليات وتساؤلات لكشف تلك العلائق الخفية من وراء هذا التخيل أما اللغة العادية المباشرة فتُصَيِّقُ من أفق توقع المتلقي لسهولة الوصول لمعانيها؛ لأنّ اللغة الاستعارية المُتَزاح بها عن المألوف والمعيارية بلغت مستوى مثاليًا، بإنشاء نافذة تطل على فضاء رحبٍ من الخيال، لولاه لانحصرت وظيفتها في المستوى الأوّل ولَعَدَا الخطاب غير أدبي، ومن هنا يظهر لنا أنّ « استعمال المبدع مفرداتٍ وتراكيبٍ و صورًا استعمالًا يخرج به عما هو معتاد و مألوف بحيث يؤدي ما ينبغي له أن يتصّف به من

تَقَرُّدٍ و إبداعٍ وقوة جذبٍ و أُسْرٍ»⁽⁹⁾ لأن قوة الحجاج في المفردات «تبدوا في الاستعمالات الاستعارية أقوى مما نحسه عند استخدامنا لنفس المفردة بالمعنى الحقيقي»⁽¹⁰⁾.

لقد عرف الإبراهيمي كيف يحرك مخيلة السامع، ويسمو به إلى فضاء الخيال واتساعه لاستدراجه شيئاً فشيئاً بطريقة غير مباشرة، فعند قوله في مقدمته "يوم مظلم الجوانب" يقف المستمع وقفة المتسائل، بماذا؟ هل بالظلام، أم بشيء آخر، فيفاجئه الإبراهيمي بإجابة خرقت أفق انتظاره: "بالظلم" وبهذه التوطئة الاستعارية يشبه الظلم وهو شيء معنوي بشيء مرئي ومجرد، ليصل إلى أغراضه التداولية؛ بوضع المتلقي في نفس الجو الذي أراد له أن يكون فيه، وهكذا سار الإبراهيمي بنفس الطريقة في هذه المقدمة، فهو لا يريد للمستمع أن يحيد عنه طرفة عين فيشحن كلامه بترساة من الاستعارات الحجاجية، فيقول ممتما كلامه: "مطرز الحواشي"، ليعيد المتلقي نفس السؤال لكن بحذر لأنه قد حُتِبَ أُنْفُ انتظاره في المرة الأولى، فكأنهما في حوار يتبادلان أطراف الحديث فيكون الجواب: "بالدماء المطلولة" فبعد هذه الإجابة الاستعارية يصل الباث إلى أغراضه التداولية، لأن المتلقي بدأ يرسم مشهداً يستحضر فيه فظاعة ذلك اليوم.

اعتمد الإبراهيمي في هذه المقدمات الاستعارية على المفارقة، كونها «تعبير لغوي بأسلوب بليغ يهدف لاستثارة القارئ وتحفيز ذهنه لتجاوز المعنى الظاهري المتناقض للعبارة والوصول إلى المعاني الخفية التي هي مرام الشاعر الحقيقي»⁽¹¹⁾.

بهذا التعريف نرى بأن صاحبه قد راعى فيه الجانب التداولي الإقناعي لأنها تهدف إلى شيء معين وهو استثارة القارئ من قبل المرسل عبر وسائل لغوية بلاغية.

لكن ما هو الشيء الذي يوجد في المفارقة حتى تجعل القارئ في حيرة من أمره حين يذهب لتفكيك العلاقة الموجودة بين المعنى الظاهر والمعنى الخفي؟

يكن الجواب في ذلك الانحراف البلاغي الذي يورث صدمة مؤقتة بالنسبة لمستقبل الرسالة لأن «ما يميز انحراف المفارقة، أنه لا يدوم طويلاً إلا ريثما يتلقى القارئ الصدمة الأولى للمفارقة، ثم يشرع بإعادة الأمور إلى نصابها من خلال إعادة إنتاج المعنى في حين تظل الانحرافات الأدبية المعتادة كالاستعارة والتشبيه والكناية تحتفظ بهويتها»⁽¹²⁾.

وفي مقدمة الإبراهيمي كثير من المفارقات الاستعارية، وذلك في قوله: "يوم مظلم الجوانب بالظلم" إن هذا الانزياح في إسناد كلمتي مظلم الجوانب إلى كلمة الظلم الذي يفرض على المتلقي نوعاً من التأني لإعادة صياغة ذهنية في محاولة لاستنتاج المعنى، وبهذه الطريقة ينجح المستكلم في أسر المتلقي معاوداً له الكرة بمفارقة ثانية لكن برفع درجة مستوى الانزياح

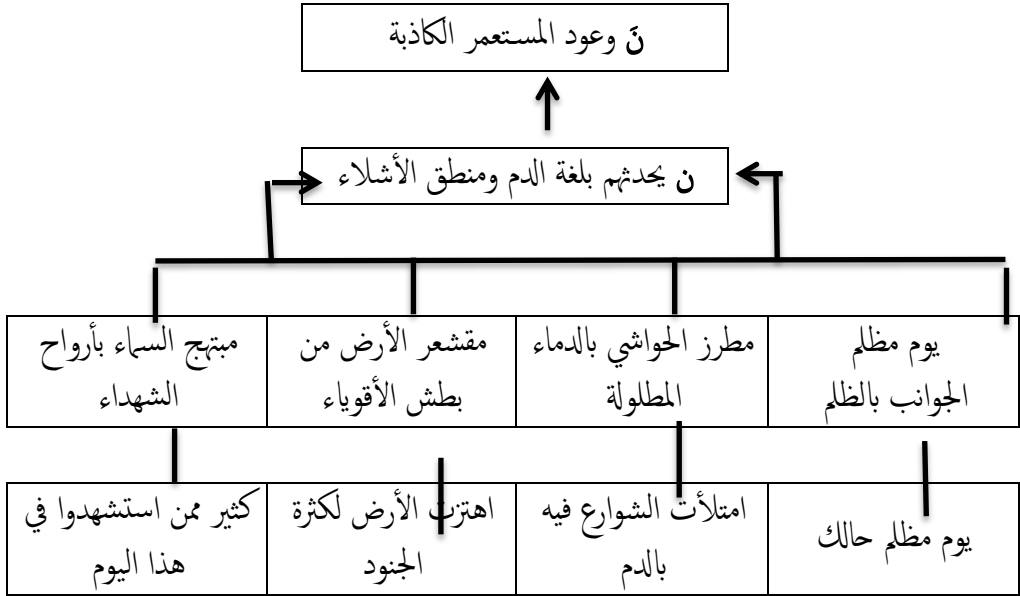
فيقول: " مطرز الحواشي بالدماء المطلولة" فيجمع الإبراهيمي في هذه المرحلة بين متناقضين، فحقل التطريز للحواشي هو مجال للزينة والفرح، وحقل الدماء هو مجال القتل والعدوان والتظلم، فشتان بين هذا وذاك، فينحج الإبراهيمي مرة أخرى بخرق أفق انتظار المخاطب ووصوله إلى مقاصده الحجاجية ، عن طريق الصدمة والتوقع الخائب لدى المتلقي.

ويعيد العملية مرة أخرى ، في قوله: "مبتهج السماء بأرواح الشهداء" يرفع المتكلم من درجة توتر الخطاب فيسند الاتهام الذي فيه الفرح والسرور إلى أرواح الشهداء والتي تعني القتل والعدوان، وفي هذا مفارقة عجيبية، استند عليها الإبراهيمي ليصل إلى أهدافه في توجيهه للخطاب إلى الواجحة التي يريد بغية أسر المخاطب وجعله مستعدا لما سيلقى عليه فيما بعد.

بعد هذه التوطئة التي برع في استهلالها وأحسن تصوير مشاهدتها وموازنة فواصلها في إيقاع موسيقي ينبه الإبراهيمي الشعب الجزائري بأن يتفطن لقضية مهمة وهي عقلية المستدمر ، في قوله: «وعاد بالتقتيل على من كانوا بالأمس يمدون حياتهم بحياتهم، ليرهم مبلغ الصدق في تلك الوعود، ويحدثهم بلغة الدم ومنطق الأشلاء»⁽¹³⁾.

يتبين لنا من خلال هذا النص -والسياق التاريخي- بأن فرنسا قد وعدت الشعب الجزائري وعودًا لكنّها لم تفي بها ، وقتلت أبناء الشعب الجزائري ، فاستحالت وعودها إلى فظائع عبر عنها باستعارتين " لغة الدم" و "منطق الأشلاء".

وولعلّ المخطط التوضيحي التالي يوضح الاستعارات التداولية التي اعتمدها البشير واختارها على حساب التعبيرات الحقيقية.



يُظهِرُ هذا المَخَطُّطُ من أوَّلِ نظرةٍ إليه مدى روعة الأقوال الاستعارية من الأقوال العادية فالجمل العادية تظهر وكأنها سرد لأحداث ووقائع تاريخية يمكن لأي شخص الإتيان بها، أما الأقوال الاستعارية نجدها أدت نفس مدلولات الكلام العادي لكن بطريقة مختلفة جمعت فيها بين المتناقضات، وتظهر فيها براعة المتكلم وكفاءته اللغوية بشكل جلي فيتميز الخطاب الأدبي عن الخطاب التاريخي العادي باستمالة المتلقي بأسلوب فني تنصهر فيه لغة التواصل مع لغة الانزياح والإبداع فالكفائيات اللغوية التي يستعملها صاحب الكلام العادي، ليست هي التي يستعملها الأديب، لأنه مكتف لغويًا بالتراث اللغوي والأدبي، من كلام البلغاء والشعراء والأنبياء.

وسنعمد السلم الحجاجي في إبراز حجاجية الاستعارات الموظفة؛ حتى تظهر الغايات الحجاجية الكامنة وراء استعمالها لأن «الأدلة والحجج تكون متفاوتة في قوتها الحجاجية لكل دليل»¹⁴، وسنعمل على توظيف هذا المفهوم لنبرز بشكل فعّال القوة الإقناعية لبعض نماذج الاستعارة المختارة من خطاب الإبراهيمي حيث يقول: "ويحدتهم بلغة الدم، ومنطق الأشلاء" إن مقصود الإبراهيمي من هذا الخطاب (هو إظهار كذب فرنسا، ومخالفتها لوعودها) واختار هذا القول عوضاً عن قوله مثلاً: "يحدتهم بوعود كاذبة، ويمنطق خاطئ"

وهو باختياره هذا يميل إلى حقيقة أن هذا القول هو أقوى من جميع الأقوال الأخرى، لأنه يجعل المتلقي ينتظن بأن هذه الوعود قد تحولت إلى دماء وأشلاء للقتلى:

- ن: إن فرنسا منافق يظهر غير ما يبطن.
- ق3: يحدثهم بلغة الدم ومنطق الأشلاء.
- ق2: ومنطق خاطئ.
- ق1: يحدثهم بوعود كاذبة.

نخلص من خلال هذا أن الإبراهيمي لا يظهر نواياه الحجاجية بأساليب تقريرية يطابق فيها بين الدال والمدلول وإنما يعتمد دائماً إلى الانزياح لأنه يقع على رأس الأقوال جميعها. لأن قوة الصورة تظهر عندما تقع في أعلى درجات السلم الحجاجي، فتكون من الوسائل الحجاجية التي يمتنع دحضها وإبطالها، ولا تقبل أن ترد في سياق التعارض الحجاجي⁽¹⁵⁾ لكن من السهل أن ندحض وتعارض الأقوال الأخرى التي جاءت في السلم بقولنا:

(1) يحدثهم بوعود كاذبة لكنه يفي ببعضها.

(2) منطق خاطئ لكنه مقبول نوعاً ما.

تُظهر هذه الأمثلة أنّ الأقوال العادية قابلة للاعتراض بأدوات التعارض الحجاجي مثل "لكن -بل" وإذا أدخلنا هذا الرابط على الجمل الاستعارية فسرعان ما يظهر لحنها.

(1) يحدثهم بلغة الدم لكنه يفي ببعض الوعود.

(2) هو منطق الأشلاء لكنه مقبول نوعاً ما.

ختاماً أقول إن هذه الاستعارات أتاحت للمتلقي فضاء شاغراً هو ذلك الجانب الخفي الضمني والذي يتوجب عليه إظهاره، بملا الفراغات والمسافات القائمة بين عناصر الصورة حتى يصل إلى النتيجة التي استدرجه لها صاحب الخطاب، فهي بالتالي "نتيجة تأويلية"⁽¹⁶⁾ وصل إليها المتلقي بنفسه فلا يمكن الاعتراض عليها، مما يجعله محيئاً "لبداية الانخراط في دورة الكلام الحجاجية، وبداية الانصياع لمنطق الكلام المؤذنة بحصول الإذعان"⁽¹⁷⁾.

وفي الأخير يمكن القول إن الاستعارة في مقالات البشير الإبراهيمي تمتلك طاقة حجاجية قوية وقوة تعبيرية عالية تم توظيفها بهدف حمل المتلقي على التصديق والإذعان؛ لكونها تُبنى

على جوانب ضمنية تستدعي من المتلقي المرور بمسارات استدلالية توصله إلى المعاني الخفية فيكون بالتالي طرفاً مهماً في العملية التواصلية .

الهوامش :

- ¹ ينظر : سعيد حسن البحري , علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات , الشركة المصرية العالمية للنشر , لونغمان , القاهرة , ط1 , 1997م ص 16.
- ² صابر الحباشة , التداولية والحجاج , مداخل ونصوص , صفحات للدراسات والنشر , دمشق , ط1 , 2008م , ص 50.
- ³ أوليفي رويول , هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي ؟ , تر: محمد العمري , ضمن كتابه البلاغة الجديدة بين التخييل و التداول , أفريقيا الشرق , المغرب , دط , 2005 ص 217.
- ⁴ أبو بكر العزاوي , اللغة والحجاج , الدار البيضاء , ط1 , 2006 , ص 108.
- ⁵ محمد البشير الإبراهيمي , عيون البصائر , دار الأمة , الجزائر , دط , ص 369.
- ⁶ محمد عباس , البشير الإبراهيمي أديبا , رسالة ماجستير , جامعة بغداد 1983 , دار الفجر وهران ص 142.
- ⁷ محمد البشير الإبراهيمي , عيون البصائر , ص 370.
- ⁸ محمد عباس , البشير الإبراهيمي أديبا , ص 143.
- ⁹ ويس أحمد محمد , الانزياح في منظور الدراسات الأسلوبية , مؤسسة اليمامة الصحفية , الرياض , ط1 , 2003م ص 08.
- ¹⁰ ميشيل لوكرين , الاستعارة والحجاج , ت: عبد الطاهر وعزيز , مجلة المناظرة , الرباط , ع: 4 , 1991 , ص 87 .
- ¹¹ عبد الهادي خضير , المفارقة في شعر المتنبي , مجلة كلية التربية للبنات , جامعة بغداد , ع3/11 , 2000 ص 91.
- ¹² ناصر شبانة , المفارقة في الشعر الحديث , ص 71.
- ¹³ الإبراهيمي , عيون البصائر , ص 370.
- ¹⁴ أبو بكر العزاوي , اللغة والحجاج , ص 103 .
- ¹⁵ ينظر: المرجع نفسه , ص: 107.
- ¹⁶ ميشيل لوكرين , الاستعارة والحجاج , ص 88.
- ¹⁷ عبد الله صولة , الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية , دار الفارابي , بيروت 2008 ص 558.